مضيق لا تجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوساً إلى أن مرض (سنة ٣٦٣) فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات.

هذه كانت الحال في خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الثغور الإسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضاً وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون.

ومما حصل في عهد المطيع من الحوادث انتقال خلفاء الفاطميين إلى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلي عليها وذلك (سنة ٣٦١) في عهد الخليفة المعز لدين اللّه معد الفاطمي.

موت المطيع:

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فلج فأشار عليه بكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بداً فخلع نفسه في منتصف ذي القعدة (سنة ٣٦٣).

٢٤ ـ الطائع

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع للّه بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد ولد (سنة ٣١٧) وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيع (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة إلى أن خلع في (٢١ رجب سنة ٣٨١ ـ أكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته (١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام).

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بني بويه وهم:

أولاً ـ عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى (سنة ٣٦٧).

ثانياً ـ عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى (سنة ٣٧٢).

ثالثاً ـ صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة إلى (سنة ٣٧٦).

رابعاً ـ شرف الدولة أبو الفوارس سيرزيل بن عضد الدولة إلى (سنة ٣٧٩).

خامساً ـ بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة.

ويعاصره في بلاد الأندلس الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦) وهشام ابن الحكم (٣٦٦ ـ ٣٩٩) وهو الذي كان يحجبه المنصور بن أبي عامر.

وبإفريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيرى الصنهاجي نيابة عن الفاطميين إلى (سنة ٣٧٣) وخلفه ابنه المنصور يوسف إلى (سنة ٣٨٦).

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين اللّه معد الفاطمي إلى (سنة ٣٦٥) وخلفه ابنه العزيز باللّه إلى (سنة ٣٨٦).

وباليمن من آل زياد أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم إلى (سنة ٣٧١) ثم عبد الله ابن إسحاق إلى (سنة ٣٩٠).

وبصنعاء من آل يعفر عبد الله بن قحطان إلى (سنة ٣٨٧) وهو آخر أمراء هذه الدولة.

وبحلب سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة إلى (سنة ٣٨١).

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة إلى (سنة ٣٦٩) ثم أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى (سنة ٣٨٠) وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية. وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي أمير بني عقيل.

وفي ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بني حمدان وأول هذه الدولة أبو علي الحسين بن مروان الذي ابتدأ ملكه (سنة ٢٨٠).

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ ـ ٣٨٧).

وبجرجان الدولة الزيادية والأمير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير إلى (سنة ٣٦٦)وخلفه شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى (سنة ٤٠٣).

وقد ابتدأت في أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزلة وجدت على أطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التي غربي نهر جيحون وكانت دولة الأتراك الإيلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر. وأما بلاد فارس والأهواز والري والجبال والعراق فهي بيد بني بويه يتناوبونها كما سيأتي توضيحه.

ويعاصر الطائع بفرنسا لونار إلى (سنة ٩٨٦) ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان إلى (سنة ٩٢٧) ثم هوفي كابات أول الأسرة الكاباسيانية إلى (سنة ٩٩٦).

وبإستريا أول ملك من جماعة المارغرف وهوليوبولد الأول كونت دوبابنبرج (٩٨٢ ـ ٩٩٤).

ولي الطائع وأمر بختيار مضطرب لأن الأتراك وفي مقدمتهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذي كان سبباً لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التي كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم فكتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن يساعداه على الأتراك فجهز إليه ركن الدولة جنداً مع وزيره ابن العميد

وأما عضد الدولة فكان ميالاً إلى ملك العراق فتربص ببختيار الدوائر كرر إليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحثه فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قد بلغ ببختيار ما يرجوه سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه إرادة الاستيلاء على العراق فسار إلى واسط منها إلى بغداد فتغلب على عساكر الأتراك في (١٤ جمادى الأولى سنة ٣٦٤) ودخل بغداد ظافراً وكان يريد القبض على بختيار فوسوس إلى جنده أن يثوروا عليه ويشغبوا ويطالبوه بالأموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار ما يسكنهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت إلى شكواهم ويغلظ في معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياماً وحينئذ استدعى بختيار هو وإخوته إليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الإمارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالإحسان إليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لأنه كان منافياً لبختيار وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسي وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والإكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه.

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جداً كاتبه محمد بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذي استاء أيضاً مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل إليه ركن الدولة يقويه ما هو بسبيله ويخبره أنه سائر بنفسه إلى العراق لإخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سبباً لاضطراب الأمر على عضد الدولة ولم يقبل في ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حباً شديداً ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه إلا إعادة بختيار إلى ملكه والمسير إلى فارس.

لم يطل الأمر إلا بمقدار ما توفي ركن الدولة (سنة ٤٦٦) فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بعهد منه وما عتم أن تجهز إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يطلب منه الطاعة وأن يسيره عن العراق إلى أي جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجاب بختيار إلى ذلك وسلم إلى عضد الدولة وزيره الأمير محمد بن بقية ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد ببغداد وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأس الجسر في شوال (سنة ٣٦٧) وهو الذي رثاه أبو الحسين الأنباري بقصيدته المشهورة التي أولها:

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معهما من ملك أبيه ومحمد ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئناً وأزال عنها الدولة الحمدانية وبث سراياه في طلب أبي تغلب الحمداني فهرب أبو تغلب على وجهه إلى بلاد الروم وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر إلى الرقة وجعل باقيها في يد سعد الدولة ابن سيف الدولة صاحب حلب وبذلك

اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجبال والري ثم دخلت في حوزته جرجان (سنة ٣٧١) أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير.

لم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة وإقداماً وكان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة والإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محباً للفضائل واهباً باذلاً في موضع العطاء مانعاً في مواضع الحزم ناظراً في عواقب الأمور وهو الذي بنى على مدينة رسول اللّه ﷺ سوراً إلا أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللهو واللعب ومن شعره:

ليس شرب الكاس إلا في المطر ... وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهى ... ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكاس من مطلعها ... ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة ابن ركنها ... ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير. ومن فضله أنه كان لا يعول في أموره إلا على الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضه من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به حكى عنه أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله فقال له ليس هذا من أشغالك إنما الذي يتعلق بك الخطاب في قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهي إلى القاضي وليس لنا ولا الكلام فيه ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة. وكان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده ويأمره بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم إذا عملوا. وأما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك في تاريخ العلوم في الدول الإسلامية.

ومما يعد من سيئاته أنه أحدث في آخر أيامه رسوماً جائرة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجراً خاصاً وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق. توفي عضد الدولة في شوال (سنة ٣٧٢).

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبي كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان إخوته وبنو أعمامه متفرقين في الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزيل بفارس وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان.

مكث صمصام الدولة قائماً بأمر العراق واضطراب لاحق من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه فإنه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير إليه جيشاً كانت عاقبته الهزيمة.

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذ بن دوستك وهو من الأكراد الحميدية وكان ابتداء أمره أنه كان يغزوا كثيراً بثغور ديار بكر وكان عظيم الخلقة وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب إلى ثغور ديار بكر وأقام بها إلى أن استفحل أمره وقوي ملك ميافارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعد أصحابه إلى نصيبين فاستولى عليها فجهز إليه صمصام الدولة العساكر فانهزمت وقوي أمر باذ وغلب جيوش الديلم ثم سار إلى الموصل فملكها وحدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد وإزالة الديلم عنها فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشاً عظيماً مستوفي العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباذ ديار بكر والنصف من طور عبدين.

كانت هذه الاضطرابات والمشاغل سبباً لأن شرف الدولة صاحب فارس تجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق فسار بجيشه (سنة ٣٧٥) فاستولى على الأهواز من يد أخيه أبي الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار إلى البصرة فملكها. بلغ الخبر صمصام الدولة فراسله في الصلح فاستقر الأمر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق بعد صمصام الدولة ويكون هذا نائباً عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق وسيرت إليه الخلع من الطائع للّه فلما وردته الرسل بذلك ليحلفوه عاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عليها ونفذ تلك العزيمة فلما وصل واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته فسار إليه فقبض عليه شرف الدولة وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان (سنة ٣٧٦) وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

ومن أحدث هذا البيت في عهد وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة علي بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد.

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدولة بسنتين وثمانيه أشهر وقد ابتدأ عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى إلى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام ومن فضائل شرف الدولة أنه منع الناس من السعايات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا.

وكانت وفاة شرف الدولة في جمادى الآخرة (سنة ٣٧٩).

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر ولأول توليه تجددت الاضطرابات بين الترك

والديلم وأدت إلى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك فاشتد الأمر على الديلم ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين فإن الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم. وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا.

وفي (سنة ٣٨١) قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك أن الأموال قلت عنده فشغب عليه الجند فأطمعه وزيره في أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فأرسل إلى الطائع وسأله الإذن في الحضور ليجدد العهد به فأذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل إليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسي فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل الخليفة فجذبه فأنزل عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت إليه وأخذ ما في داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضي في ذلك:

من بعد ما كان رب الملك مبتسماً ... إلى أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع إلى دار بهاء والدولة أشهد عليه بالخلع.

٢٥ ـ القادر

هو أبو العباس أحمد القادر بالله ابن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويع بالخلافة في (١٢ رمضان سنة ٣٨١) (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) واستمر خليفة إلى أن توفي في غاية ذي الحجة (سنة ٤٢٢) (١٨ ديسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته (٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً).

كان أبو العباس لما مات أبوه إسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة وطال الأمر بينهما ثم إن الطائع مرض مرضاً أشفى منه ثم أبل فسعت إليه بأخيها وقالت له إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك فتغير رأيه فيه وأرسل في القبض عليه فلما وصلت إليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار إلى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبي الحسن علي بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ في خدمته وكان ذلك في (سنة ٣٧٩) فأقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فأجمع رأيه ورأى مستشاريه على أبي العباس فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولى الخلافة